الفصل الخامس

موقف من الوضعية المنطقية [1]

مقدمة عامة :

كانت الفلسفة الايطالية ، في ثلاثينيات هذا القرن ، يهين عليها الفيلسوفان " بندتو كروتشه " و " جيوفاني جانتلي" ، وهما الفيلسوفان اللذان لم يعيرا ادنى اهتمام بمسائل علاقة الفلسفة بالعلم . كما لم يهتم بهذه المسائل ، علماء تلك المرحلة الذين انغلقوا في تخصصاتهم التقنية ، باستثناء الرياضي والمنطقي الكبير " بيانو " ومؤرخ العلوم البارز والاختصاصي في الهندسة الجبرية " انريكاس "، وان كان هذان العالمان قد عاشا في عزلة ولم يستطيعا تبليغ معارفهما لخلفائهم .

وعلى عكس هذا التوجه ، فقد ركزت جهودي منذ السنوات الاولى لي كباحث شاب ، حول هذه المسائل اقصد مسائل علاقة الفلسفة بالعلوم . وكان اهتمامي بدراسة الفلسفة والرياضيات ، يندرج في هذا الاطار . من هنا استشعرت الرغبة في زيارة " فينا " حيث كانت هذه المسائل قد نوقشت بعمق من قبل علماء يتمتعون بكفاءة عالية ، وكان طرحهم لها يتميز بالاصالة والجدة ، بالنسبة لتلك المرحلة .

1 – في مفهوم الوضعية المنطقية :

لقد كان هؤلاء العلماء وراء ميلاد ما سيعرف بعد ذلك بـ" حلقة فينا" والتي ترأسها " مورتس شليك "، استاذ كرسي فلسفة العلوم الاستقرائية ، وهو نفس المنصب الذي كان قد شغله في اواخر القرن الماضي ، الفيلسوف والفزيائي المعروف " ارنست ماخ".

ولكي نفهم السمة التجديدية ، لممثلي حلقة " فينا " او ما يسمى بـ" الوضعية المنطقية " في طريقة معالجتهم لعلاقة الفلسفة بالعلم ، يجب ان نذكّر باطروحة قبلت بشكل واسع من طرف الوضعيين في النصف الثاني من القرن الماضي ، وساندهم فيها الوضعيون الجدد ، وهي الاطروحة القائلة بان المعرفة العلمية ، حتى وان تم اغناؤها واثراؤها بنجاحات علمية جديدة ، فانها تجد نفسها في الاخير، في مواجهة مشكلات لاتستطيع حلها .

---

[1] –المقال مترجم بتصرف من مجلة : **La pensée** العدد 230 سنة 1982 ، الصفحات من 77 الى 84 . وكتبه الاستاذ ليدفيكو غيمونا أستاذ فلسفة العلوم بجامعة ميلانو ، . ترجم النص د . الزواوي بغورة .

فمثلا الوضعي الإنجليزي ، " هر برت سبنسر " صنف مثل هذه المشكلات في خانة اللامعرفات كقوله ان " موضوع الدين ليس من اختصاص العلم " وهي نفس المشكلات التي أطلق عليها الفيزيولوجي الألماني " اميل دوبوا ريمون " اسم " أحجية او الغاز العلم " .

اما بالنسبة للوضعيين الجدد ، فان الامر يتعلق بطرح خاطيء للمشكلة ، او ان المشكلة زائفة . ذلك ان المشكلة التي لاتملك حلا ، هي مشكلة بالاساس خالية من المعنى . لذا كان الواجب الاول على الفلسفة الجديدة – متبعة في ذلك برنامجها المضاد للميتافيزيقا – هو توضيح هذه المشكلات التي لاتملك معنى او دلالة ، مبرهنة بذلك على ان استحالة حل مثل هذه المشكلات ، لايعود البتة الى محدودية العلم ، وانما يعود الى خطأ في الطرح ، وان الامر لايتطلب تحويل مثل هذه المشكلات الى مجالات فكرية اخرى ، كالدين او الميتافيزيقا ، بل يتطلب الامر اقصاؤها ، وذلك لسبب اساسي ، هو كونها ليست مشاكل حقيقية .

ومن هذه الفكرة ، برزت فكرة اخرى ميزت الوضعية الجديدة عن سابقتها ، وهي انه في الوقت الذي كانت فيه وضعية القرن التاسع عشر ، وخاصة وضعية " اوغست كونت " ، تؤكد على ان المتافيزيقا يتم اقصاؤها بمجرد العبور من الحالة اللاهوتية الى الحالة الوضعية او العلمية ، فان الوضعية الجديدة ، تؤكد ، وبشكل مختلف ، على ان العلم يحمل دائما في طياته ،مشاكل متافيزيقية . ومن هنا ضرورة عزلها او طردها ، وذلك من خلال توضيح طبيعتها الخاطئة ، وكل هذا من اجل تأسيس وبناء علوم حقيقية تستحق هذا الاسم ، فما هو المنهج الذي يجب اتباعه لبلوغ هذا الهدف؟

2 – في المنهج الوضعي المنطقي :

في نظر الوضعين الجدد ، يجب ان يقوم المنهج على قاعدتين اساسيتين هما:

أ – قاعدة التحليل المنطقي اللغوي .

ب – قاعدة التحقيق التجريبي .

ومن هاتين القاعدتين ، اطلق على الوضعية الجديدة اسم آخر هو " التجريبية المنطقية " . وكما يعلم الجميع ، فان النظرية العلمية هي مجموعة من العبارات المشكلة في لغة . وان مثل هذا التعريف ينطبق وفي كثير من الاحيان ، على اللغة العامية او الطبيعية ، وهنا تكون العلاقة بين كلمة وكلمة ، وبين عبارة وعبارة ، علاقة غامضة او غير محددة بشكل صارم ودقيق . وذلك بسبب كون الكلمة

الواحدة، تحمل اكثر من معنى ، وتستعمل باساليب مختلفة . من هذا المشكل او من هذه النقطة ، كانت الحاجة – والتي تقاسمها العديد من العلماء وخاصة علماء الرياضيات – الى نحت لغة عالية التخصص ، مستقلة ومختلفة عن اللغة العامية او الطبيعية ، لغة اصطلاحية يمكن مراقبتها بشكل كامل . وبتطور هذه الحاجة ، ادى الى تكوين ما نسميه اليوم باللغات الشكلية ، والتي استعملت في البداية من اجل عرض كل النظريات الرياضية ، ثم شيئا فشيئا ، من اجل عرض كل النظريات.

فمثلا استعان " ردولف كارناب " باللغة الشكلية من اجل معالجة كل القضايا والمشكلات التي اراد اختبارها ، وخلص الى نتيجة مفادها ان كل العلوم يمكن ترجمتها الى لغة فزيائية ، هذه اللغة التي تتمتع ببنية تمكنها من البرهنة على وحدة الاتساق المعرفية ، مع استبعاد كلي للقضايا التي تقف في وجه المعرفة العلمية .

ومن بين النتائج ، التي حققتها هذه الطريقة المنطقية اللغوية ، هي استخراج الكلمات ذات المعنى التجريبي والمرتبطة بمعطيات تم ملاحظتها . يعني كلمات مختلفة كلية عن الكلمات الميتافيزيقية ، أي الكلمات ذات المعنى التجريبي .

ونتج عن هذا ان الكلمات ذات المعنى التجريبي فقط ، هي التي تشكل العبارات او القضايا ، التي نستطيع اختبارها تجريبيا ، أما العبارات التي لا تخضع للتحقيق ولا للتكذيب ، فهي عبارات " لامعنية " ، طبعا ماعدا العبارات المنطقية الرياضية ، والتي بطبيعة بنيتها لاتستطيع قول أي شيء ، وانما تستطيع فقط ان تفصح على النتائج المستنبطة من مجموعة من البديهيات . وعلى كل حال ، فاننا اذا ماتوقفنا عند العلوم الفزيائية – الفزياء بالمعنى الواسع للكلمة – فان معيار العلمية بحسب الوضعيين الجدد ، يتحدد فقط بالاختبار التجريبي .

3 – تطورات و تأثيرات الوضعية المنطقية :

ان الاطروحات التي عرضناها تشكل في الحقيقة ، التراث المعرفي للوضعية المنطقية ، وان كان ذلك في مرحلتها الاولى ، امافيما بعد – أي بعد سنة 1930 – فانها خضعت للتعديل والتصحيح . وذلك لان تطبيقا ضيقا لمفهوم التحقيق التجريبي ، قد يؤدي الى ان نلغي من العلم كل القضايا المتعلقة بالقوانين الطبيعية ، هذه القوانين التي هي تأكيدات عامة لايمكن التحقق منها .

اننا لانظيف أي شيء جديد ، لتطور الوضعية المنطقية ، وان ما اشرنا اليه يعد كافيا – في نظرنا – لتقديم فكرة حول هذا التيار الفكري ، الذي يعتبر في نظر

معتنقيه ، نموذج للعلمية بحيث شكل النقد الجديد ، لعلاقة الفلسفة بالعلوم .

الا انني اعتقد ، انه من الضروري التوقف ، ولو بشكل مختصر عند تأثيرات الوضعية الجديدة على الاتجاهات الفلسفية الهامة في عصرنا ، وخاصة تلك المسألة الاساسية التي يولونها اهمية قصوى ، واعني بذلك التحليل المنطقي-اللغوي باعتباره عاملا حاسما في المنهجية العلمية .

وكما هو معلوم ، فانه بقراءتهم لـ" الرسالة المنطقية الفلسفية " لـ" فيدجنشتين " تمكنوا من ادراك اهمية اللغة في اختبار ومعالجة المشاكل الفلسفية ، وكانت النتيجة التي توصلوا اليها بعد ذلك هي ان مهمة الفلسفة تكمن في نقد اللغة .

وحتى في السابق ، كان هنالك من الفلاسفة من اكدوا على اهمية اللغة ، ولكن الاضافة الاساسية التي قدمها " فيدجنشتين " تكمن في قوله ، ان كل شيء يختزل الى اللغة ، فحتى المعطيات التي يتم ملاحظتها تختزل الى لغتها ، وذلك لانها لاتوجد الا عندما يتم التعبير عنها بـ (العبارات التي تعبر عن المعطيات الحسية والتي تسمى بعبارات البرتوكول) .

من هذه القاعدة نصل الى نتيجة مفادها ، ان القاعدة التي تتأسس عليها النظريات العلمية ، ليست معطيات الاحساسات ولكن عبارات البرتوكول . وكما قلنا سابقا ، فان الوضعيون الجدد ، يستعملون تعاليم فيدجنشتين من اجل الوصول الى تحقيق صرامة علمية في تشكيل النظريات العلمية . ومن هنا كان تركيزهم على تحليل اللغة العلمية بدقة عالية ، مركزين على الجانب التركيبي والجانب الدلالي للغة.

الا ان هنالك اتجاهات اخرى ، ذهبت ابعد من هذا في اعتمادها على فيدجنشتين ، وذلك بتوسيع مجال تحليلاتها لتشمل اللغة العامة اوالطبيعية . والتي يمكن تلخيصها في العبارة التالية : كل بحث فلسفي ، مهما كان ، اذا اراد ان يكون بحثا جادا ، يجب ان يكون بحثا لسانيا او لغويا . وحتى الابحاث الاخلاقية والسياسية والدينية ، يجب ان تتبع طريقة البحث اللساني ، وبتعبير آخر يجب تحليل، الى جانب اللغة العلمية ، اللغة الاخلاقية والسياسية والدينية ، وذلك بتحديد التمثلات او التصورات والاختلافات القائمة بينها ،واعادة تشكيل مسائل كل فرع من الفروع في شكل لغوي ، وبهذا يتم فتح الطريق نحو حل كل المشاكل التي تطرحها.

طبعا ، عن مثل هذا الاتجاه الفكري يمكن الحديث عن الواحدية اللغوية، واحدية مرتكزة على الاطروحة التالية : لايمكن الخروج من البعد اللغوي ، او

بعبارة اخرى ، كل شيء لغة ، وقبول أي شيء خارج هذا البعد يعد سقوطا في الدوغماتية ، والتي تعتبر وهما من الاوهام . الاانه يجب ان نعترف، رغم عدم قبولنا بهذه الواحدية ، بان هذه المنهجية قد مارست تأثيرا واسعا وعلى قطاعات عديدة من ثقافتنا ، كما اعطت دفعا كبيرا للدراسات المنطقية وفلسفة اللغة وعمقت العلاقة الاصطلاحية بين العبارة والشيء .

لنعود الآن من الفلسفة العامة الى فلسفة العلوم ، ولنلاحظ ان تحليل النظريات العلمية التي قام بها الوضعيون الجدد ، كانت تهدف الى تحقيق هدف واحد وهو ان تعطي للنظريات العلمية ، الشكل الخالص من الصرامة والخالي من كل متافيزيقا . وهذا راجع ،كما قلنا سابقا ، الى الحركة الرياضية المكثفة في القرن التاسع عشر (نشيرهنا الى اعمال كوشي، ايل ، دوبلزانو) وكذلك الى حركة اعادة بناء النظريات الجبرية والهندسية والحسابيةفي شكل بديهي .

ولقد ظهرت هذه الحركات بعد ازمة الفزياء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والتي جعلها تواجه مشكلات جديدة ، على غرار المشكلات التي اوجدتها حركة تبديه النظريات الرياضية . ونحن اذا ما نظرنا اليها من هذه الزاوية، فاننا نجد ان الوضعية الجديدة قد ظهرت كاتجاه فكري ، مرتبط وبشكل وثيق ، بتطورات ازمات العلوم ، وليس كاتجاه فكري ظهر نتيجة مشكلات فلسفية مجردة ومصطنعة .

الا ان هنالك امرا ، يجعلنا مترددين في القبول بالوضعية المنطقية ، وهذا التردد يعود الى طموحها في الوصول الى هدفها الذي اعلنت عنه والمتمثل في اعطاء النظريات العلمية الشكل الخالص من الصرامة . انه اذا كان هذا ممكنا ، فان كل نظرية علمية تحقق هذا المطلب ، تصبح نظرية نهائية ، وهي بهذه الصيغة ستقع خارج التاريخ والذي هو في الواقع ودائما ، تاريخ العودة والتصحيحات والتصحيحات الذاتية والثورات الحقيقية .

صحيح ، ان الوضعيين لم يتقاسمو جميعا هذا الطموح ، فمثلا "شليك " لم يكن مقتنعا بمثل هذا التوجه . ولكن وبطبيعة الحال، فان هذا الطموح ناتج عن برنامجهم. والا لماذا التأكيد على هذه الفكرة؟ ولماذا لانعترف بان هذا مجرد مثال ميتافيزيقي ؟ ام يجب القول ان النظريات التي تتمتع بالصرامة الخالصة ليس لها بعد تاريخي، وهو مايعطي لبرنامجهم صفة المناقشة ، كما انه اذا كان البحث عن الصرامة تعبير عن العقلانية فهل طرق هذه الصرامة ، تدخل ايضا في اطار العقلانية ، ام يجب

اعتبارها وكانها فوق العقلانية ؟

ان سبب خسوف الوضعية الجديدة ، التي ظهرت في سياق تطورات علمية ، ملحة وحادة ، يجب البحث عنها في نظري ، في الطابع المجرد والطوباوي لمثا ل العلم الخالص الذي ابتدعته . ففي بحثهم عن احسن الوسائل التي تمكنهم من مثالهم، وبالاعتماد عن النتائج التي حققوها ، انتهوا الى نسيان العلم الواقعي والطريقة التي تحقق بها في اطار التاريخ والذي يتجسد يوميا .

وعليه فان التخلي عن التيار الوضعي ، لايمكن ان يكون الا في صالح العلم وتاريخ العلم . وطبعا فان المفكرين المعروفين بما يسمى بـ" ما بعد الوضعية المنطقية " أي " بوبر "و" لكاتوس " و "فيرابوند " من المدافعين عن الطبيعة اللانفصالية لفلسفة العلوم وتاريخ العلوم . وانني ، ايضا تخليت عن الوضعية الجديدة، على اساس الالحاح في الربط بين فلسفة العلوم وتاريخ العلوم .

ولقد سألني الكثير من الزملاء ، ان كنت آسفا عن الطاقة التي استهلكتها في شبابي في دراسة الوضعية الجديدة ، حيث كنت الاول في ايطاليا من نشرها بكفاءة وتعاطف كبير . واني اجيبهم باني لست متأسفا عن شيء ، ذلك انني مازلت اواصل التفكير فيها كما كنت افكرها دائما ، أي كاتجاه فكري جاد يجب ان يعرف في ايطاليا وفي غيرها من البلدان . هذه هي قناعتي ، وذلك لانني تبينت حجم المناخ الذي خلقته الوضعية الجديدة ، واستجابة العديد من العلماء لها ، والذي دفع ببعضهم الى رؤيتها كفلسفة للفزياء الجديدة والرياضيات الجديدة .

صحيح ان هذا الحماس قد تقلص بعض الشيء ، وخاصة في العشريتين الاخيرتين ، وان ابرز ممثلي مابعد الوضعية الجديدة قد انتقدوا الكثير من جوانب الوضعية الجديدة ، ولكن المؤكد ايضا ، ان هذه النظرية قد مثلت تحولا حقيقيا في البحث الابستمولوجي للنصف الاول من القرن العشرين .